

# قميصي

«في المطارات ولدنا. نعرف القصة، لكن... لن نموت في الموانئ»

سميح القاسم

فدوى القاسم ❖

أيها الدفتر العزيز، ماذا لو يقرأك أبي؟ وماذا لو تقرأك أمي، وأنا أتعري أمامهما حرفاً تلو حرف؟ هل سيكتشفان سرّي، أم سيظنّان أنّي أسرد قصةً فحسبُ ليست لها أية صلة بالواقع؟ أخشى أن يُحرّنهما اكتشافُ ضياعي، وخوفي من حاضري، ومستقبلي، ومن تاريخٍ توارثته رغماً عني، في حياةٍ أسأل نفسي فيها كلَّ يوم: متى تبدأ حياتي؟

على اسم فدوى طوقان اسمي، ولكنّي بالداخل فوضى وطوفان. منذ زمنٍ بعيدٍ بدأت «فوضتي»، بين وعي الطفولة وحيرة الوعي. كتبتُ كلماتي المرتبكة قبلك في ذهني بالإنجليزية، بالعربية، بالوان جديدة، اخترعتها خصيصاً لترسم ألواني، وأكتبها هنا دون تسجيل التاريخ عنواناً لحياتي الخارجة عن التاريخ. أمضي في اللاتاريخ، لا يحسّ الوجودُ بوجودي، ولا يفتقد الغيابُ غيابي.

عشتُ حياتي كلّها مبعثرةً بين مدن عربية لا تشعُر فيها بالعروبة، ومدنٍ أجنبيةٍ لك الحقّ بأنّ تشعُر فيها بما تريد. لا أنتمي إلى أية مدينة، أو لحازمةٍ بمدينة، أو جدرانٍ بيتي، أو ترابٍ. غجزيّةٌ أحملُ ذكرياتي في بقجة، وعلى روعي يزداد تراكمُ الغبار مع كلّ رحلةٍ جديدة. أترك خلفي صدّ صوتي، ليذوب في اللامكان، وأثارَ خطواتي على تراب الشاطئ لتبتلعها أمواج اللانمان. وعندما أتوقف لحظةً لألتقط أنفاسي، أنظر خلفي، فلا أرى شيئاً يدلّ على عبوري.

لكني عندما أسأل من أين أنا، أجاب بكل حماس بأنّي فلسطينية. نعم فلسطينية! ألبس فلسطينيتي كقميصٍ قيمٍ قديمٍ، أدفئ به وجودي. أكمامه طويلة، وأكتافه أعرّض من أكتافي. قميصٌ لا أعرف متى لبسته أو لبسني. وقلقةٌ أمشي، متوتّرةٌ، مندفعَةٌ، حائرةٌ، فلا أجد ما ينال إعجابي، ولا ما يريحني. كلما انتقلتُ إلى مكانٍ جديد، أذكر - بحرارةٍ وحنينٍ - المكانَ القديم، الذي لم ينل إعجابي وقتها، ولم يُرْحني!

وأينما ذهبتُ، حاصرتهُ مفرداتُ وألقابُ تخيفني، تزيدني قلقاً وتوتراً، تحشرنني في علبه ضيقة، تُحشّرُ بدورها داخل علبه هي الأخرى ضيقة، ثم أخرى، وأخرى.. كالدُمى الروسية الخشبية التقليدية. فمنذ أن وعيتُ وأنا أتحسّس طريقي عبر شظايا كلمة «فلسطيني»: فهناك عربٌ فلسطينيّ، عربٌ إسرائيل، عربٌ ٤٨، فلسطينيّ بجنسية عربية، فلسطينيّ بجنسية غربية، فلسطينيّ عائد من الكويت، فلسطينيّ هارب من الكويت، فلسطينيّ هارب من العراق، فلسطينيّ بجواز سفر، فلسطينيّ بوثيقة، فلسطينيّ بوثيقة وبطاقة. هناك إرهابيّ، ووطنيّ، وانتحاريّ، واستشهاديّ، وهناك فلسطينيّ لا يعرف فلسطين.

وهناك أنا وقميصي، قميصي المنسوجُ بخيوطٍ رقيقةٍ من ذكريات أبي، وقصص من قصص جدي. قميصي الذي تلوّته العنصرية، ويُنهشه النرحال. لكم تمنيتُ أن أبقى طوال حياتي في زاويةٍ واحدة، أحفظها وتَحفظني، إذا بُعدتُ عنها أشتاق حتى إلى براميل القمامة فيها!



زاويتي فقط قميصي.

حدودي فقط قميصي.

كفني فقط قميصي، فلا تساوي، حتى في الموت. أدركتُ ذلك عندما توفّي عمّي الذي تُشَبَّع من مدينته القدس، وتشربَ منها. إنْ غادرها أياماً، تسربتُ من أصابعه وزيقه رائحتها. كُتِب تاريخه في الأم تاريخها، وحملتُ مدينته نعشه على أكتافها.

❖ - كاتبة فلسطينية مقيمة في الإمارات العربية.

أما أنا، فسأنتهي غريبةً في بلد غريب، حتى لو شاء القدر أن يكون ذلك في فلسطين. فبالرغم من قميصي، فأنا غريبة عنها، وغريبة هي عني. لن تعرفني. سترفضني، مثلما يرفض الجسمُ أعضاءً غريبةً زُرعت أثناء عملية جراحية. سألوّث تربتها.

سأدفنك قبل أن أدفن، يا دفترتي. سأكفّنك أنت بما تبقى من قميصي الذي كنت أنكمش بداخله، والآن ينكمش هو بداخلي. سأدفنك تحت أول شجرة زيتون أقابلها في طريقي. ما كتبتُ فيك إلا وأنا حزينة، وقد كتبتُ فيك كثيراً. أنت الحائطُ الذي مارستُ عليه حرية الكتابة، وحرّيتي لم تكن سوى مساحة تلك الصفحات.

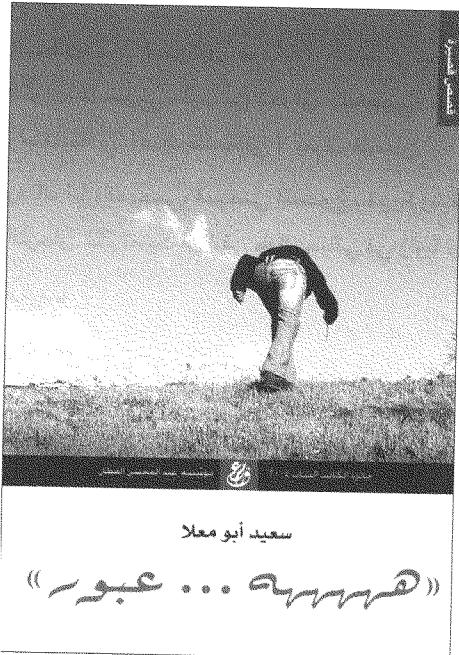
أنت لا تعرف عني سوى ما عكّرتُ به صفو بياضك؛ فقد حفرتُ بك - بفأس حروفي - بئراً لالامي. احتويتُ خوائي، بل إنك كنتَ تنتظر لقائنا كلَّ غروبِ شمس. لقد أفرغتُ نفسي فيك، يا دفترتي، فأين يذهب الآن فراغي؟ لم يبقَ مني سوى أحرفٍ تبلّل قدمي. أنحني لأجفّفها، دون جدوى. أحرفي كثيرة، وقميصي لم يعد يحتمل، لكثرة ما رقعته، ورقعته.

كم خشيتُ نهايتي هذه منذ البداية! كم خشيتُ ألا أجد سوى الرقع عندما أكبر!

كبرتُ، يا دفترتي، ولم يغبَ قميصي. ومهما غسلته، فإنه لن يعود أبداً ناصع البياض. أردتديه، فأبرد. أبرد، يا دفترتي، أبرد ولا أتخلّى عنه.

كلُّ الموائى عرفنتني، نعم، وكلُّ مطار، وما زلتُ هناك أنا، أكتبُ في غرفة الانتظار.

دبي



صحافي وقاص فلسطيني، من مواليد مدينة جنين العام ١٩٧٩. يكتب القصة القصيرة والمقالات السياسية والأدبية. يقيم حالياً في القاهرة بغرض استكمال دراسته العليا في مجال الدراسات الإعلامية. ينشر قصصه في الجرائد والمجلات الأدبية المحلية والعربية.

منحت جائزة القصة القصيرة في مسابقة الكاتب الشاب للعام ٢٠٠٤ التي ينظمها برنامج الثقافة والعلوم في مؤسسة عبد المحسن القطان إلى سعيد أبو معلا عن مجموعته «هههه عبور»؛ وذلك لأن كتابته متمكنة، وسرده متماسك، واستطراداته ذكية. كما أنه يتميز بطواعية الانتقال من شكل كتابي إلى آخر، وأفكاره الكتابية تنم عن إحساس فعلي ودراية بهذا الإحساس. بالإضافة إلى أنها تنجح بشكل كبير في صنع عوالمها الخاصة، ورسم معالم مكانية شديدة الوضوح.